

## الشيخ محمد عبده

(هذا عنوان الفصل السابع من تقرير اللورد كرومر عن مصر والسودان لسنة ١٩٠٥ قال)

اختلقت المنية في السنة الماضية رجلا مشهورا في الهيئة السياسية والاجتماعية بمصر اريد به الشيخ محمد عبده فأجيدت أن أسطر هنا رأيي الراسخ في ذهني وهو ان مصر خسرت بموته قبل وقته خسارة عظيمة

لما أتت مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ كان الشيخ محمد عبده من المنضوب عليهم لانه كان من كبار الزعماء في الحركة العرابية . غير أن المغفور له الخديوي السابق صفح عنه طبعا لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق فعين الشيخ بعد ذلك قاضيا في المحاكم الاهلية حيث قام بحق وظيفه القضاء مع الصدق والاستقامة وفي سنة ١٨٩٩ رقي الى منصب الافتاء الخبير الشأن فاصبحت مشورته ومعاوته في هذا المنصب ذات قيمة عظيمة ثمينة تتضاعف من علوم الشرع الاسلامي مع مابه من سعة العقل واستنارة الذهن واذ كر مثالا على نفع عمله الفتوى التي افتاها في ما اذا كان يحل للمسلمين تدمير أموالهم في صناديق التوفير فقد وجد لهم بابا به يحل لهم تدمير أموالهم فيها من غير ان يخالفوا الشرع الاسلامي في شيء (١)

أما الفئمة التي ينسب اليها من رجال الاصلاح في الاسلام فعرفته في الهندا كشر مهاي معروفته في مصر ومنها قام الشيخ الجليل السيد

(١) قد علم قراء المنار من قبل أنه لما قال الاستاذ الامام بذلك جمع الامير طائفة من علماء المذاهب عنده فنظروا واتفقوا على الطريقة وكتبوا ما قدمه الامير للحكومة وهي عرضته على المفتي وعملت بما أقره

أحمد الشهير الذي انشأ مدرسة كلية في عليكده بالهند منذ ثلاثين عاماً والغاية العظمى التي يقصدها رجال هذه الفئة هي اصلاح عادات المسلمين القديمة من غير أن يزعموا أن الدين الاسلامي أو يتركوا الشعائر التي لا تخلو من أساس ديني . فمثلهم شاق وقضاؤه عسير لأنهم يستهدفون دائماً لسهام نقد الناقدين وطعن الطاعنين من الذين يخلص بعضهم النية في النقد ويقصد آخرون قضاء اغراضهم وحك حزازات في صدورهم فيتهمونهم بمخالفة الشرع وانتهاك حرمة الدين

اما صريده والشيخ محمد عبده واتباعه الصادقون فموصوفون بالذكاء والنجابة واكنهم قليلون وهم بالنظر الى النهضة المليية بمنزلة الجيروندست في الثورة الفرنسية فالمسلمون المنتطون المحافظون على كل أمر قديم يرمونهم بالضلال والمخروج عن الصراط المستقيم فلا يكاد يؤمل أنهم يستميلون هؤلاء المحافظين اليهم ويسرون بهم في سبيلهم ، والمسامون الذين تفرنجوا ولم يبق فيهم من الاسلام غير الاسم مفصولون عنهم بهوة عظيمة . فهم وسط بين طرفين وعرض اتقاد الفريقين عن الجانبين كما هي حال كل حزب سياسي متوسط بين حزبين آخرين غير أن معارضة المحافظين لهم أشد وأهم من معارضة المصريين المتفرنجين إذ هؤلاء لا يكاد يسمع لهم صوت ولا يدري الا الله ما يكون من أمر هذه البثة التي كان الشيخ محمد عبده شيخها وكبيرها فالزمان هو الذي يظهر ما اذا كانت آراؤها تشغل الهيئة الاجتماعية المصرية أولاً . وعسى الهيئة الاجتماعية ان تقبل آراءها على توالي الايام اذ لا ريب عندي في ان السبيل القويم الذي ارشد اليه المرحوم الشيخ محمد عبده هو السبيل الذي يؤمل رجال الاصلاح من المسلمين الخير

منه ابني ملتزم افا ساروا فيه . فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوربيين

واملمهم يجدون بعض التنشيط من نقلي قولاً لرجل من أهل دينهم وصف فيه المعارضة التي اقيمتها مدرسة عليكده الكلية المذكورة آنفاً والطريقة التي تغلبوا بها على تلك المعارضة

بعد ما وصف السيد محمود قلة اهتمام المسلمين في الهند بتعلم العلوم منذ أربعين أو خمسين سنة قال «وكان هؤلاء السادة المسامون مستائين من قلة تقدم المسلمين في تعلم العلوم العالية غير أنهم كانوا مستائين من أنفسهم أيضاً ومتحسرين على العلوم التي أهملوا تعلمها . ولكنهم لم يكونوا ممن يكتفي بالتشكي والتذمر ويقتصر على اللوم والتعنيف بل أنهم لما علموا علة الشر وأصل البلوى عقدوا النية على اكتشاف علاجها أيضاً فأنشأوا جمعية شيخها السيد أحمد خان الذي قضى العمر مجاهداً في سبيل تهذيب العقول بالعلوم والمعارف وجعلوا غايتها العظمى البحث عن وجوه الاعتراض التي يعترض بها المسلمون على التعليم الذي تعلمه حكومة الهند في مدارسها ومعرفة التعليم الذي يرجون استبداله به . فالتضح لهم ان الرجوع الى أساليب التعليم التي كانت متبعة في الشرق قديماً اضحى ضرباً من المحال . ورأوا على ما بهم من الأكرام والاحترام لتقاليد السلف والاستعظام لكنوز العلوم والآداب التي توارثوها عن آبائهم ان التعليم الذي يرقى قومهم الى درجة تلامم التمدن المحيط بهم ويردهم الى مقام يشعر فيه بنفوذهم وتأثيرهم انما هو التعليم المبني على الاعتراف بتقدم العلوم الواسع الابواب ، الدقيق الدروس ، المحب الى المتعلم كل أمر بديع عجيب في علوم البلدان الأخرى وآدابها

وقال: نتها فكانت هذه السمة منهم في العقل والاصالة في الرأي اعظم خطر على مشروعهم في بادىء الامر لانهم لو دعوا جموع المسلمين الى قبول رأيهم المبني على مبادئ لا تخالف الدين الاسلامي بالذات بل تخالف التفسير التي يفسر بها اكثر المتدينين به لاستغزت الدعوة جموع المسلمين الى المعارضة واقامت على الجمعية القيامة. وكانت الجمعية تعلم ذلك وتصبر عليه لا تتظارها الفوز في النهاية فبقيت مدة وليس من يؤيدها عن طيب نفس حتى ضمنت المعارضة شيئا فشيئا امام شجاعة المصاحين وثباتهم ثم أيدهم رجال خطيرو الشأن مثل المرحوم السرسار جنك تأييدا ماديا من جهة ومعنويا من أخرى في اعتبار الذين يعدون الاسم العظيم ضمانا عظيما. وكان أعضاء هذه الجمعية متخلفين بأخلاق مجلبهم وتزههم عن كل غاية شخصية فزالت الأوهام بعد ادراك حقيقة بدعتهم الرهيبة وانقلب بعض الذين كانوا الأخصوم لهم الى أشد الأنصار غيرة عليهم. وقد مضى ثلاثة عشر عاما (١) على اجتماع الجمعية لوضع مشروعها وظني أن الذين كانوا أقوى أعضائها آمالا في نجاح مسعاها لم يكونوا يتصورون انها تنجح النجاح السريع الذي عاشوا حتى شاهدوه «انتهى اه

أقول في تلك المدرسة الآن ٧٠٠ طالب ولو كانت تسع غيرهم لكان فيها أكثر منهم ومعظم الذين فيها من الهند ومنهم طلبية من بلاد الصومال وفارس وبلو خستان و بلاد العرب وأوغندة ومويتوس ومستعمرة الرأس ويقيني انه لو قصدتها الطلاب من مصر لاستقبلوا فيها بالسرور والبشاشة وأنزلوا على الرحب والسعة

(وقال في أواخر الفصل الذي تكلم فيه على المحاكم الشرعية (ص ١٣٢) ما نصه:  
 « هذا واني أوافق السر ملكوم مكاريت على ما قاله عن الضربة  
 الثقيلة التي أصابت الاصلاح من هذا القبيل بموت المرحوم الشيخ محمد  
 عبده فقد اشرت الى خدمات ذلك الرجل الجليل في فصل آخر من هذا  
 التقرير وأعود فأبسط الرجاء أيضا ان الذين كانوا يشاركونه في آرائه  
 لا يخور عزائمهم بفقده بل يظهرون احترامهم لذكراه أحسن اظهار بترقية  
 المقاصد التي كان يرمي اليها في حياته» اهـ

أما ما أشار اليه من كلام السر ملكوم مكاريت المستشار القضائي في تقريره  
 عن المحاكم فما هو بنصه

ولا يسعني ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي بغير أن  
 أتكلم عن وفاة مفتي الديار المصرية الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده في  
 شهر يولييه الفاتت وان أبدي شديد أسفي على الخسارة العظيمة التي أصابت  
 هذه النظارة بفقده فقد كان خير مرشد لنا في كل ما يتعلق بالشريعة  
 الإسلامية والمحاكم الشرعية وكنا نرجع اليه كثيرا للتزود من صائب آرائه  
 والاستعانة بمساعدته الثمينة وكانت آرائه على الدوام في المسائل الدينية أو  
 الشبيهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر كثيرا ما كانت خير معين  
 لهذه النظارة في عملها. وفوق ذلك فقد قام لنا بخدمة جزيلة لا تقدر في مجلس  
 شوري القوانين في معظم ما أحدثناه أخيرا من الاصلاحات المتعلقة بالمواد  
 الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية اذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة  
 ونياتها ويناضل عنها ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك  
 وانه ليصعب تعويض ما خسرناه بموته نظرا اسمو مداركه وسعة اطلاعه

وميله لكل ضروب الإصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظيفه في محكمة الاستئناف وسياحاته الى مدن أوروبا ومعاهد العلم . وكانت النظارة تريد ان تسكل اليه أمر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع انشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية . أما الآن فإنه يتعذر وجود أحد غيره حازر للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته فلذلك هذه الاسباب اخشى ان نظارة الحفانية ستظل زمناً طويلاً تشعر بخسارتها بفقدانها لكلام المستشار

### العبرة في كلام اللورد كرومر

من تأمل كلام اللورد في هذا الفصل وتلك الشذرة استفاد منه ضروباً من العبرة والحكم تدل على ان هذا الرجل الاجتماعي الكبير قد علم من شؤون المسلمين — وهو أجنبي — ما لم يعلمه الرؤساء من علمائهم وأمرائهم ، فضلاً عن أوساطهم ودهائهم ، فإني أن نبين ذلك مع شئ من الشرح والرأي

#### العبرة الاولى بآراء حال المسلمين

ذلك أنه قسم المسلمين الى ثلاثة اقسام — (الاول) المتعلمون المحافظون على كل قديم جروا عليه وهم السواد الأعظم ونقول أنه قد بلغ من تنطعهم في جهودهم على ما ألفوا أن كان من أشد الصعوبات التي لاقتها الدولة العلية في سبيل التعليم العسكري في طرابلس الغرب محافظة الأهالي على زيهم المعروف وحسبانه من أمور الدين وإن أهل مراکش لأشد تنطعاً وجموداً على ذلك ولا يخفى على من شاهدوا حركات العساكر في الحرب أوفى التعليم أن لبس البرنس والرداء المعروف بالحرام من عوائق خفة الحركة وموانع اتقان كثير من الأعمال التي تتوقف عليها البراعة العسكرية . ولا يختلف عاقلان في كون البراعة في الأعمال العسكرية ومن أهمها خفة الحركات والنظام في النقل والانتقال هي أعظم أسباب الفوز والظفر . فهذه

عادة ليست مما توجبها عقائد الدين ولا عباداته ولا فضائله وآدابه قد صارت عقبة كؤدا في طريق رقي المسلمين ، وعزة الاسلام وحماية الدين ، فما بالك بغيرها من العادات ، التي تقوم على إلحاقها بالدين بعض الشبهات ، وهذا القسم من المسلمين تابع في صلاحه وفساده لتسيوخ العلم الديني وتسيوخ الطريق الذين ينتمون إلى الصوفية فهو لا يصلح الا اذا صلحوا وأصلحوا أو زال اعتقاده بزعامتهم الدينية وقبض له بعد ذلك مصلحون آخرون .

(القسم الثاني) المفكرنجون الذين ليس لهم من الاسلام الا اسمه والله دره ما أدق فكره اذ عرف أنهم مارقون من الدين ساقطون من نظر الاعتبار لاقية لهم في أنفسهم ، ولا صوت لهم في أمتهم ، وسنعود الى ذلك

(القسم الثالث) المصلحون الذين يريدون إصلاح حال المسلمين الاجتماعية مع المحافظة على الدين لعلمهم ان كل فساد طرأ عليهم فمنعهم عن مجازاة الامم في أسباب العزة والقوة انما هو من العادات والبدع لا من جوهر الدين .

وقد ادرك اللورد بصائب فكره ان هذا القسم هو الوسط الذي يرجي خيره بين المنتظمين في جمودهم والمتهتكين في تفرنجهم . قال ان هذا الحزب معروف في الهند أكثر مما هو معروف في مصر وان منه السيد أحمد خان مؤسس مدرسة عليكمه الكلية منذ ثلاثين عاما . ونقول ان الزمن الذي قام فيه أحمد خان بعمله هذا هو الزمن الذي كان السيد جمال الدين الافغاني يبذر فيه بذور الاصلاح في مصر بمساعدة الشيخ محمد عبده الذي تلقى عنه وتخرج على يديه ( وترى في هذا الجزء مقالتي من المقالات الاصلاحية التي تلقاها عنه ونشرها في جريدة مصر التي كانت أنشئت بارشاده ) وكان السيد جمال الدين فيما نظن أقدر من السيد أحمد خان على الاصلاح لولائه فتن بالسياسة فحالت دون إتمام عمله في مصر ولم تمكنه من عمل يذكرفي غيرها سوى ما كان يكتبه في أوربا من المقالات الموقظة . لذلك كان الاستاذ الإمام جازما بأن مسالة السياسة واتقاه شرط للتمكن من الاصلاح كما بينا في ترجمته . وغرضنا من هذه الكلمات بيان أن مسلمي الهند لم يسبقوا مسلمي مصر الى الاشتغال بالاصلاح وانما فاقوهم بمدرسة العلوم الكلية التي اسسها أحمد خان وقد عزم الاستاذ

الامام أن يؤسس في مصر مدرسة خيرا منها لكن النية عاجله قبل ذلك فقدمت قبل وقته كما قال اللورد وقال كل عاقل عرفه

وليعلم مسلمو مصر أن مدرسة العلوم في عليكده لم تنجح الا لأن مؤسسها كأوامن عهد زعيمهم السيد أحمد خان الى الآن على وفاق مع السلطة الانكليزية وتحسين للظن بها فكانوا خيرا منهم من جعلهم سوء الظن والكراهة بين معاد لعلوم الافرنج الزائفة وبين خائف من كل عمل نافع لله، وأن الاستاذ الامام كان على هذا الرأي أي أنه لا بد لنا من العمل النافع للاسلام والمسلمين مع تحسين الظن بأن الانكليز لا يعارضوننا في ذلك ولا يمنعوننا ما ينفعنا الا اذا أدخلنا فيه السياسة وقصدنا مضارهم ومقاومتهم وحينئذ نكون أضرب على أنفسنا وأنفع لهم كما هي سنة الله تعالى في كل جاهل ضعيف يقاوم عالما قويا . وسأوضح هذه المسألة في موضع آخر

اماما أشار اليه اللورد من معارضة المسلمين للسيد أحمد خان وحزبه فلا يتوقع نظيره من مسلمي مصر فان أولئك كانوا يمدون جميع العلوم التي يصفونها بالجديدة أو بالأوربية ويعدونها آفة الدين والمصريون ليسوا كذلك وانما كان المتطعون من أهل الجود يخافون الاستاذ الامام على الدين من جهة تعليمه للدين اذ كانوا يظنون انه ينصر مذهب الفلاسفة أو الممتزجة على مذهب أهل السنة فلما قرأ العقائد والتفسير في الأزهر زال ذلك الظن بتأدي السنين وعلم أهل الأزهر كافة أنه ينصر مذهب السلف على كل مذهب يخالفه ولا يقدم على ما نطق به الكتاب ومضت به السنة النبوية قولاً لقائل . فأنحصرت بعد ذلك معارضة الاصلاح الذي كان يحاوله فيمن يعرف اللورد وغيره من أهل البصيرة أنهم انما يعارضونه لاسباب شخصية بل صرح اللورد بذلك . لهذا كان كل شيء يخرج عنونه للظن فيه يكون سببا لزيادة عرفان الناس بفضله حتى ان السواد الاعظم من الأمة المصرية صار معه في أواخر مدته . ولا ينبغي هذا قول اللوردان مردي الشيخ واتباعه الصادقين قليلون فانه يعني بهذا الصادقين في طلب الاصلاح والعارفين بطرقه وهم قليلون بالطبع ولكن الذين يوافقونهم ويحسنون الظن في طريقهم كثيرون جدا بل هم الاكثرون فمسي أن يوقتهم الله المضي في العمل الذي كان امامهم متوجها اليه وعند ذلك يظهر

صدق قولنا لاسيا اذا علم الناس ان الحكومة وما وراءها من القوة راضية أو غير  
ساختة على عملهم

بلغ من مقاومة السيد أحمد خان ان كان مطمئن فيه على المناز واستغنى بعض  
علماء الحرمين في أمره فأفتوا بكفره ولم تبلغ مناهضة الاستاذ الامام في شدتها هذا  
المبلغ. ذلك بأنه كان أقدر على الاحتجاج بالدين لما يدعو اليه وأهد من السيد  
أحمد خان عن الشذوذ وان مناهضيه أقل غباوة واضعف ارادة والأمة انبه منهم  
وأقرب الى قبول الاصلاح من أهل الهند

### العبرة الثانية ثناءه على الامام

صفوة العبرة الاولى ان اللورد عارف من أحوال المسلمين مالا يعرفه أمراؤهم  
وعلماءهم فيعتقد بقوله فيهم. واما العبرة الثانية فتريد بها ما في ثنائه على الرجل وجزبه  
من الانصاف وعرفان الفضل لأهله وما في تنشيطه لهذا الحزب من قصد الخير وقد زاد  
هذا الثناء قيمة صدوره بعد نشر كتاب (مصر الحديثة) الذي وضعه كاتب فرنسي  
اسمه (غورفيل) وطبعه باللغتين الانكليزية والفرنسية وقد اشتهر الكتاب بفصل فيه  
معرضا الى فقيدنا المرحوم فيه انتقاد شديد على الحكومة المصرية والمحتلين الذين  
يدبرون أمرها ويدبرون دفتها وقد ترجمته أكثر الجرائد العربية اليومية ولكن الرجال  
العظام تبني أحكامها على الصفات والأعمال ، لا يصدها عن مقاصدها قيل وقال ،  
واللورد ونظار الحكومة ومستشاروها قد تعودوا من فقيدنا المرحوم قول الحق الذي  
يعتقده في كل ما يخاطبهم به خطابا رسميا أو غير رسمي وناهيك بتقريره عن المحاكم  
الشرعية وبمناقشته لناظر المعارف في مجلس الشورى في انتقاد التعليم بمدارس  
الحكومة. وقد كان اللورد العظيم يصع آراءه غير الرسمية موضع الاعتبار كإبائه في ضرر  
إلغاء النيابة العمومية وكانت الحكومة قد عرّضت على ذلك وكادت تنفذه فرجعت عنه  
فهل يعتبر بهذا رجائنا الذين يمنهم الجبن ان يقولوا لكبراء المحتلين ما يعتقدون  
في المصالح والأعمال ؟ ألا يكفيهم ثناء اللورد والمستشار القضائي على الاستاذ  
الامام بما أثنيا به بعد موته واحترامهما وسائر كبراء المحتلين له في حياته برهاننا على  
أن القوم رجال جدد يجلبون من يقول الحق في السر والجهر ويهدم بالاخلاص

في الخفية والعلن سواء وافق رأيهم أو خالفه ما لم يكن حربا لهم، وأنه لا قيمة لأهل  
الدهان والرياء في أنفسهم وحسبنا هذا الايجاز في هذا المقام  
هذا وليعلم الذين يقولون ان اللورد لم يكتب في الرجل أكثر مما يجب أو  
ينتظر أولم يوفه حقه ان تقرير اللورد ليس تاريخا لمصر ولا كتابا في مناقب العلماء  
والحكماء وإنما هو تقرير رسمي عن مالية مصر والسودان وإدارتها وحالتها  
العمومية فالذي ينتظر ان يقال فيه عن مفتي الديار المصرية أنه رجل جليل مصلح  
قد قام بأعماله في الحكومة خير قيام، أو ما في معنى هذا الكلام، ولكن اللورد  
قد زاد على ذلك ما رأيت في الكلام عن حزب الرجل وتفضيله على سائر المسلمين  
وتنشيطه وحثه على ترقية المقاصد التي كان يرمي اليها إمامه  
وإنتي رأيت صريدي الأستاذ الامام شاكر بن اللورد ما كتبه قادر بن إياه  
قدره راجين ان يصدق عليهم ظنه الحسن

#### المرة الثالثة حثه الأروبيين على تنشيط هذا الحزب

أني لأعلم ان من الناس من يعجب لقول اللورد « فأتباع الشيخ حقيقون  
بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوربيين » و بعضهم يضعه موضع الظنة لا اعتقاد  
المسلمين أن الأوربيين أعداء لهم لا يريدون لهم اصلاحا ولا خيرا ما و انما يريدون  
الخير لقومهم خاصة فكيف يحث اللورد أهل أورباكافة على تنشيط حزب مصلح  
ينفع المسلمين بل لا يفهمهم غيره كما قال والجواب عن هذا الاشكال لا يفهمه الا  
من عرف كنه الفتح أو الاستعمار الأوربي وقد سبق لنا فيه قول وتقول هنا كلمة  
وجيزة فيه .

ان غرض الأوربيين من كل بلاد يدخلونها بالفتح أو باسم الحماية أو الاحتلال  
الموقت أو غير ذلك من الاسماء هو الكسب ولا ينمو الكسب الا بالعمارة فهم  
يحبون عمران البلاد التي يتبوؤونها ومن ثم سمو ذلك استعمارا، وعمران كل بلاد  
انما ينمو ويمتد على قدر اتفاق أهلها مع المستعمرين عليه وهذا الاتفاق يتوقف  
على أمور أولها في المرتبة معرفة كل من الفريقين الآخر ليكون في وفاقه وخلافه  
على بصيرة ومن كان أعلم بالآخر كان أجدر بالفوز عند التنازع مع تساوي القوة

فكيف اذا كان الأعم هو الأقوى . ولكن الأوربيين لا يحبون ان ينازعوها ويقاوموا وان كانوا واثقين بالظفر لان ذلك يقلل من كسبهم . ومتى قبضوا على ناصية السلطة في بلاد أمنوا من مقاومتها بالقوة وأحصر حذرهم في مقاومة الأمة لهم بالفن فان كل عمل يراد في البلاد يعسر تنفيذه اذا كان سواد العامة مقاوما له فاذا كان هذا السواد بحيث يخشى خروجه على السلطة كانت موارد الكسب على خطر ثم ان الأوربيين يرون أن أعظم مثار للفن التي ربما تنفضي الى الخطر على موارد كسبهم الذي يطلبونه بنشر مدينتهم وباستثمارهم للأرض هو ما عليه عوام المسلمين من الاستعداد للتهيج باسم الدين ووب هيجة شومى يقوم بها بعض الدجالين الذين تعتقد العامة صلاحهم أو بعض زعماء السياسة تذهب بعمل سنين طويلة - لهذا كله كان من مصلحة الأوربيين في بلاد المشرق ان يوجد حزب نير الفكر محب للإصلاح الذي يعرف العامة بقدر أنفسهم وبنسبتهم الى الاجانب الذين يعيشون معهم ويزنزل التعصب الاعمى في نفوسهم حتى لا يغرم الفارون ويدعوهم الى أعمال إن أضرت بالاجانب قايلا فهي تضر بهم كثيرا . فالاجانب العقلاء المارقون بكنه المشرق كاللورد كرومر واضرا به من سامة الانكليز يحبون هذا النوع من الإصلاح الذي ينفع المسلمين لانه يفهمهم أيضا أنهم يحبون ان يكسبوا بهدو وطأ نينة كما قال المنار غير مرة واكن قلما يذهب بهم الميل الى السعي في ايجاده أو الحث عليه لان مصلحتهم قاعة بدونه ، قاعة بقوة العلم والحكمة ، وقوة السلاح والوحدة ، فاذا وجد فيهم من يبحث عليه كانت السياسة منه تابعة للفضيلة الشخصية وما أجدر اللورد كرومر بذلك

مثل هذا الإصلاح لا يأتي من جانب المتفرنجين لانهم لا قيمة لهم في نفوس السواد الأعظم لبسدهم عن الدين فلا بد من حزب وسط بين العامة وبين المتفرنجين يكون له جانب الى النظام والمدنية وجانب الى الدين النقي السالم من الخرافات التي هي مثار الفتن والآفات . ولا شك ان الحزب الذي كان يرأسه الاستاذ الامام لا غرض له الا ازالة البدع والأوهام التي ألصقت بالدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا . ومن أركان الإصلاح الذي يرمي اليه أخذ كل ما ينفعنا ولا يمارض ديننا من علوم أوربا ومدنيتها . اما العلوم الحقيقية فلا شيء منها يخالف الدين

الحق وأما أعمال المدنية فمنها النافع لنا كالجُميات الخيرية والعملية والدينية والأدبية والشركات المشروعة ومنها الضار كالخمر والميسر والفجور، ويمتد هذا الحزب أنه لا يمكن لنا القيام بهذا الإصلاح إلا ببقاء السياسة فيه واجتناب مقاومة السلطة به ويجعل مداره على تربية النفوس بالدين وترقية شأن البلاد الاجتماعي والاقتصادي وترك السياسة لاهلها . ذلك أن سياسة هذه البلاد هي عبارة عن مسألة الاختلال وقد سألت الأستاذ الامام عن رأيه فيه عند مازار طرابلس منذ بضع عشرة سنة فقال أنها مسألة أوربية لا شأن لنا فيها وإنما الشأن فيها لدول أوروبا ذات المصالح في مصر مع السلطان فإذا اتفقت هذه الدول على الجلاء كان ، وهو ما لا دليل عليه الآن ، هذا رأي إمامنا رحمه الله في المسألة المصرية وقد قالت أوروبا كلمتها فيها بلسان اتفاق بريل سنة ١٩٠٤ فلماذا لا نشغل بما يفئنا وهو في استطاعتنا من ترقية أممتنا بالترقية والتعليم ونترك مالا طاقة لنا به ولا يأتي منه إلا الضرر وأقل هذا الضرر تحويل قلوب الأمة عما فيه خيرها وفلاحها في دينها وديانها وضغط أوروبا عليها

هنا يقول المعارض سلمنا أن طريقة هذا الحزب هي المثلى في إصلاح حال المسلمين ، وإن منتهى الحكمة فيها مسألة الأوربيين ، لكن مثل اللورد كرومر في بعد نظره وثاقب رأيه لا يعزب عنه أن المسلمين إذا ساروا على هذه الطريقة ارتقوا ارتقاء حقيقيا يحول دون دوام السلطة الانكليزية فيهم فكيف يركب هذا الصعب ، أو يكون حاديا لهذا الركب هذا الحزب ، والجواب عن هذا سهل وهو أن طريقة هذا الحزب الجامعة بين الفئدتين في الحال قد تكون جامعة بينهما في الاستقبال ، فإن الأمة إذا سارت في طريق الترقى مع المسألة وحسن التفاهم بينهما وبين هؤلاء القوم ولقيت منهم التنشيط والمساعدة على رقيها في إبان ضعفها وعجزها فهي لا تترك صداقتهم في طور قوتها وهم لا يتركون صداقتها ويمكنهم أن يربحوا منها في طور القوة والاستقلال ، أكثر مما يربحون في طور الضعف والاختلال والانكبابهم القوم الذين لا يماندون الطبيعة وإنما يسايرونها ويستفيدون من كل طور من أطوارها بحسبه . وأهلى لا أكون وأها إذا قلت إن فرنسا لو وجدت في الجزائر حزبا يعمل لترقية شأن المسلمين ، مع التوفيق بين مصالحهم ومصالح

الفرنسيين ، لا باحت له العمل ان لم تنشطه وتساعدته . على أن الانكليز لم يساعدوا طلاب الاصلاح في مصر كما أنهم لم يقاوه وهم . وما كتبه اللورد في تقريره الاخير هو أول قول رسمي سمعناه منه يدلنا على ميله الى هذا الاصلاح فأحببنا ان نزيل ارتياب المرتابين فيه لأن سوء ظننا بالقوم يضرنا ولا يضرهم ومن انباوة أن يظن أن القوي يصانع الضعيف وان مثل اللورد كرومر يكتب مثل هذه الكتابة لدولته ، ويرمي فيها عن غير قوس عقيدته ، وهو يعلم أن أوربا كلها تحل آراءه محل الاعتبار ، لاسيما ما كان منها أثر التجربة والاختبار ، وقد سمعنا عنه منذ سنين أنه قال لبعض الكبراء وقد رغب اليه في عمل ينفع المسلمين ويرقيهم ان من لا يعمل لنفسه لا يعمل له أحد فاعملوا ونحن نساعدكم أو قال وحسبكم ان لا نعارضكم . فقال الراغب أنه ليس عندنا رجال يهتمون بالخدمة العامة فقال اللورد بل عندكم رجالان الشيخ محمد عبده ورياض باشا فساعدوها بالمال وهما يمسلمان للمسلمين ما يرقىهم ويرفع شأنهم

#### المرة الرابعة رأيه في المتفرنجين

يظن هؤلاء المتفرنجون أن لهم مكانة عالية في نفوس الأوربيين لتشبههم بهم في عاداتهم وتزلفهم اليهم وإفراغ أموال البلاد في أكياسهم وقد علم مما ذكرنا عن اللورد أنه لا يقيم لهم وزنا وقد علمنا مثل هذا بل ما هو شر منه عن كثير من كبراء الأوربيين -- علمنا أنهم يحتقرون هؤلاء المتفرنجين وفي ذلك من العبرة مالا محل لشرحه في هذا المقام واللييب من تكفيه الإشارة وأين اللييب فيهم وقد أفسدت الخمر ألبابهم ، وأضاع القمار صوابهم ، فمسرهم في حسرة على نبال الذي يتبع شهوته ، وموسرهم في حيرة لا يدري كيف يقضي ثروته ، ومنتهى الفجر سددهم كتاب غريب يسائر في الطرقات ، ونوع جديد من المركبات ، وقناة أوربية تخامر في المنتزهات ، و تقبيح ما عليه قومهم من الآداب والعادات ، وعرف الأمر في الفن في الآلات ، وان أذاقت الأمة ضعف الحياة وضعف الممات ،

